المصطلح المعرّب وتدريس العلوم بالعربية
نحو وجهة نظر أخرى

شكري فيصل

توشك أن تكون قضية تعريب المصطلحات أبرز المشكلات اللغوية التي تواجه الحياة العربية المعاصرة في وجوهها كلها : في وجهها هذا السياسي حين ترى أن الوحدة اللغوية هي أول أشكال الوحدة التي يجب تحقيقها ، وفي وجهها الآخر هذا العلمي حين ترى أن اللحاق بالركب الحضاري لابد له من حثّ السير ومضاعفة الخطى وان ذلك لا يمكن أن يكون الا بهذه اللغة القومية ، ثم في وجهها الثالث هذا الوجه الاجتماعي الذي يرى أن استمرار العربية وبقاءها رهين بقدرتها على أن تلائم ما بينها وبين الحياة الجديدة في مظاهرها المختلفة .

إن هذه الوجوه الثلاثة تتلاقى على تكوين هذا الهرم وتضع على قمته مشكلة المصطلح المعرب على انه ذروة هذه الوجوه كلها من نحو ، وعلى أن هذه الوجوه انما تنساب منه وتتتابع بادئة به .

أ ـ والذين يتابعون البحث اللغوي في وجوهه المختلفة أو في مراحله المتصلة يلاحظون أن هذه القضية استبدت وتستبد باهتمام أكثر الباحثين .. بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه يتعذر أن يكون هنالك باحث لغوي لم يسهم في ذلك على نحو من الأنحاء : على نحو مباشر يتصل بالمصطلح وضعاً له أو تصحيحا ، وعلى نحو غير مباشر في جملة هذه الأبحاث التي تعود إلى تعزيز الثقة بالعربية ووضعها موضع اللغة الصحيحة السليمة في الحياة اليومية وفي الحياة العلمية على السواء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ب ـ ووراء الأبحاث اللغوية وحولها تأتي جهود المجامع اللغوية واللجان الكثيرة المنبثقة عنها والمتكاملة معها، لتصب اهتمامها، أو أكثره، حول المصطلح .. ولعل أكثر ما كان من موضوعات المؤتمرات اللغوية وما يكون وما سيكون إنما يواجه هذه القضية، ويحاول أن يسد ثغره من هذه الثغرات الكثيرة التي تتفجر في وجه الحياة العربية وعلى طريقها. إن قرارات اللجان والمؤتمرات تدور مع هذه المصطلحات تصويراً للحاجة الماسة إليها أو إقراراً للأصول النظرية التي يجب أن تقوم عليها أو مناقشة لما وضع منها مناقشة تنتهي إلى معاودة النظر فيها أقل الأحيان وإلى إقرارها أكثر الأحايين.

ج ـ والأمر في الجامعات من هذا النحو هو الأمر في المجامع: كلا هذين النوعين من المؤسسات يتعاون على هذا العمل ويجهد فيه ويلتقي عليه. أولئك يعانون الأمر من وجه، وهؤلاء يعانونه من وجه آخر، وكلهم متشاركون في هذه المعاناة: على شيء من فرق يتمثل في أن بعض الجامعيين لا يزال يرى تدريس العلوم باللغة الأجنبية، ولذلك فهو لا يولي مشكلة المصطلح هذا الاهتمام الشديد.

وإذا كان أمر تعريب المصطلح العلمي على هذا النحو من الاهتمام به والإلحاح عليه والالتقاء حوله، فلماذا تأتي نتائج العمل فيه مقصرة عن غاياتها التي تتطلع إليها، ولماذا لا تزال الآلاف من المصطلحات العلمية من غير بديل لها؟ لماذا يظل المعجم العربي في المجالات العلمية ضامراً لا يكاد يتجاوز بعض العلوم إلى غيرها إلاّ على شيء من المسّ الرفيق والخطو المتقارب؟. هل هنالك عوائق وماذا هي هذه العوائق؟ هل تعود إلى العربية ذاتها؟ هل تعود إلى من يمارسون إيجاد المصطلح؟ أتعود إلى الذين يقرونه أم تعود إلى الذين يقررونه؟ وبصورة أخرى أهي، هذه العوائق، في المجامع أم الجامعات؟ وهل هنالك، وراء المجامع والجامعات عوائق في الجو العام الذي يلفها كلها معاً، أي في المستوى الحضاري الذي تحيا فيه الجماعة العربية في أقطارها كلها من هنا وهناك؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

- ٢ -

لست أقصد هنا في هذه الصفحات القليلة ، الى أن أتحدث عن هذه العوائق ولا أن أدخل في تصنيفها . ولكني أريد أن أصل بين موضوع المصطلح العلمي المعرب وبين القضية الثانية التي تقف على الطرف الآخر : عنيت قضية تدريس العلوم باللغة العربية في المعاهد العليا والجامعات .

إن هذه القضية تتلاقى مع قضية المصطلح ، بل هي تؤلف الوجه الآخر لها . وبين القضيتين في أذهان العاملين في الجامعة والمجامع مثل هذا الدور : للتدريس بالعربية لا بد من وجود المصطلح ، ولوجود المصطلح لا بد من التدريس بالعربية .. وفي هذه الحلقة المقفلة يدور كثير من النقاش وتبذل كثرة من جهود دون أن يتكسر في الحلقة طرف منها يساعد على الإفلات من هذه الحركة الخرساء في هذه الدائرة المفرغة .

ترى هل في وسعنا أن نتلمس الخروج من هذا المطاف العقيم ؟ هل في وسعنا أن نعطي القضية وجهاً آخر وأن نضع لها مساراً غير هذا المسار ، يجعل الحركة في ذلك تتجه نحو الغاية ، ويحيل الجهود ، هذه الشجرة البرية ، إلى جهود مثمرة ؟

- ٣ -

أما في نطاق الدراسات الإنسانية فيبدو أن الأمر لم يعد يؤلف هذه المشكلة الضخمة . فعلى طول البلاد العربية في الجامعات والمعاهد ، أوشكت اللغة العربية أن تكون هي لغة هذه الدراسات . هنالك أحيانا هذه الازدواجية في بعض الجامعات في بعض الاقطار تتمثل في وجود فرعين معاً : فرع الدراسات الجغرافية والتاريخية والفلسفية والحقوقية باللغة العربية ، والفرع الآخر الذي يدرس هذه المواد كلها باللغة الأجنبية . ولكن هذه الازدواجية لا تؤلف الآن خطراً كبيراً لانها ، أغلب الظن ، موقوتة ، ولأنها تؤلف هامش الأمان النفسي والدليل الواقعي للذين لا يزالون يحيون حياة رواسبها من الماضي أثقل من تطلعاتها نحو المستقبل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا دون أن أتحدث عن الأقطار التي تتعدد فيها الجامعات والتي يختلف فيها ولاؤها اللغوي بين أن يكون الفرنسية أو للانجليزية .

- ٤ -

وتبقى الدراسات العلمية . إنها هي التي تشغل الساحة وهي التي تستبد بأشد الاهتمام ، وهي التي تؤلف خطر هذا الانفصام في شخصية الانسان العربي المثقف ، فيكون أصحاب الثقافة العلمية في وجه واصحاب الثقافة الإنسانية في وجه آخر ، ويؤلف الجدار اللغوي هذا الحاجز الصلد بينهما .

في مجال الدراسات العلمية اذن تتراوح أبعاد القضية الثلاثة : البعد الذي يتصل بالمجامع ، والبعد الذي يتصل بالجامعات ، والبعد الثالث الذي يتصل بهذا الجو الحضاري من حول الجامعيين والمجمعيين جميعا .

فكيف نستطيع أن نجعل من هذه الأبعاد أبعاداً متلاقية وأن نخرج بها عن أن تكون أبعاداً متصارعة ؟ كيف نملك أن نجعلها تسير في خط واحد أو على الأقل في وجهة واحدة ، بديل أن تكون هذه الأبعاد المتناحرة المتخالفة ؟ . كيف نستطيع أن نجعل منها قوى متكاملة عوض أن تكون هذه القوى المتناقضة ؟

يبدو لي أني هنا في حاجة إلى أن ألقي بعض الأضواء التي لا بد منها على هذه الأبعاد الثلاثة :

أ - فأما عن الجو الحضاري الذي يحتاط بنا والذي يداخلنا فأحسب أنه هو الذي يكثف المشكلة وهو الذي يؤلف منها وجهها الآخر ، الوجه المظلم .. إن المصطلح العلمي الجديد لا يمكن أن يولد في فراغ ، ولا يمكن أن نطلق تسميات على أشياء لا نعرفها أو على أشياء لا نملكها . إن الغياب الحضاري للعلوم ، في النطاق النظري وفي نطاق أدواتها وآلاتها وتطبيقاتها، هو الذي يؤلف عندنا المشكلة، وهو في ذات الوقت المشكلة التي نسعى للخروج منها .. اننا نريد العلم لملاحقة هذا الركب الحضاري ، ولكننا

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نريد أن تكون العربية أداة هذا العلم ، ومن هنا هذه المفارقة التي قد تحمل لنا من خلالها ريح الفشل . لذلك لا بد لنا من أن نوجد هذه الاشياء في حياتنا حتى توجد الألفاظ والمصطلحات العربية التي تعبر عنها . إن وجودها في الذهن وحده أو في أذهان معدودة هي أذهان القلة القليلة النادرة من العلماء ، لا يمكن أن يصلها – الا بخط غير مرئي – بالألسنة ، وبالتالي لا يمكن أن يضعها موضع التداول .. إن المصطلحات العلمية هي لغة العلماء فإذا لم يكن هنالك هؤلاء العلماء ، وإذا لم يكن هنالك هذا العلم ، بأبحاثه النظرية وأشكاله التطبيقية وأدوات هذا التطبيق ، فمن أين تكون اللغة إذن وكيف تتوضع ؟

الجو الحضاري إذن ، في وجوده المشخص ووجوده الذهني المجرد ، امر أساسي في وجود اللغة العربية العلمية المعاصرة .. ولا بد أن تكون ولادة المصطلح ولادة طبيعية .. إنه لا يمكن أن يكون نفخاً في الروح .

غير أن هذا الجو الحضاري مرتبط بالتعليم العالي ، بالجامعات والمعاهد ومؤسسات البحث العلمي .. هو نتيجة لها .. ونحن نريد هذا التعليم والبحث أن يكون بالعربية .. فما هو السبيل ؟ .

ذلك يقودنا أن نتحدث عن البعدين الآخرين : عن المجامع أولا ثم عن الجامعات .

ب – أما المجامع فإنها لا تؤلف المشكلة الكبرى في هذا الموضوع ، ليست حداً من حدودها ولا سبباً فيها . انها بعض الطريق الى حل العقدة ولكنها ليست العقدة . لقد تجاوزنا فترة الحديث عن المجامع : فترة اتهامها أو إلقاء المسؤوليات عليها . إننا تجاوزنا فيما أحسب ، بعد هذه التجارب المخلصة الصادقة التي قامت بها هذه المجامع والمكاتب في دمشق والقاهرة وبغداد والرباط ، أن نتحدث عن تقصيرها ، وآن لنا أن نضعها في موضعها الطبيعي ، وأن نقدر أن عملها لا يمكن أن يأتي – في

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نطاق المصطلح العلمي ــ أولا ، وإنما يأتي مواكباً أو يأتي تتويجاً . إن القضية الكبرى في هذه المجامع انما هي مسؤولياتنا نحوهــا وواجبات الدولة في دعمها ، دعماً يتناسب مــع ما نتحدث به دائماً ، في المجــال الفكري والقومي . وتلك ، على أي حال ، مسألة أخرى ليس هــذا أوان البحث عنها .

إن مهمة المجامع في الظروف الحاضرة أنها مبادرة من نحو ، وتجميع من نحو آخر ، واقرار من نحو ثالث . ولكنهــا لا تتولى ، في ظروفهــا الحاضرة ، مهمة الوضع أو الكشف الذي يسبق وجود الاشياء .

ج ــ ماذا يبقى إذن ؟ أين نجد المفتاح السحري الذي نلوب عليه ؟ إنه يتجسد في هــذه الجامعات . . في أرضها نواجه المشكلة ونواجه حلها في آن واحــد . إن هذه الجامعات هي أخصب بيئة لغوية ، في الشكل الأولي العفوي لهذه اللغة . . إنها هي السؤال والجواب في آن معا .

والجامعات في الوطن العربي اليوم تنشعب في زمرتين غير متكافئتين : الجامعــات التي تدرس العلوم بالعربية ، والجامعــات التي تقف علــى الطرف الآخر فلا تدرس بغير اللغات الاجنبية . والمقارنــة بين هاتين الزمرتين تكفل لنا أن نضع الأمور في مواضعها السليمة :

الجامعات التي تدرس بالعربية ، وفي حدود المعرفة العلمية التي يصل اليها الجامعي في ذروة دراساته ــ استطاعت أن تنهض بهذا العبء العلمي مصاحبة للعربية وفي دائرتها دون أن تخرج عنها أو ترفع رايــة العصيان في وجهها ، أو أن تنحني لها معتذرة اليها مستغفرة منها . إنها حجة قائمة استطاعت في النطاق النظري وفي النطاق العملي ، في نطاق المتابعة العلمية وفي نطاق الكشف العلمي أحياناً ، في ذلك كلــه استطاعت أن تبرهن علــى أن المشكلــة ليست عقــدة لا تحل ، ولكنها عقبــة تذلل وعائق يجتــاز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

أمـا الجامعات الأخرى التي تدرس بغير العربية فان حجتها الكبرى فقدان المصطلح . إنها تتعلل بذلك لتظل تدرس العلوم بهذه أو بتلك من اللغات الاجنبية .

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام قضية فقدان المصطلح ، وتوشك الدائرة أن تنطبق من جديد وأن يلتحم طرفاها لتعود هذه الدائرة المغلقة .

ولكـن ما هو نصيب ذلك من الحق ومن الواقع ؟ لقد وقفنا أمام فقدان المصطلح عاجزين ، وأخذنا بهذا التعليل ، واخذنا نفتش عن المصطلح في عجز أو في تخاذل ، واستقر في أذهاننا أن هـذه هي المشكلة حقـا . ولكن المصطلح ، كما استبان لنـا ، لا يولد في الهواء ، ولا بد من الجو الحضاري الذي يحتضن النظرية ويحتضن التطبيق حتى يولـد المصطلح . فكيف نجـد المخرج من هذا المأزق ؟

أليس في وسعنا أن نضع القضية في وضع آخر ؟ هل يتوقف تدريس العلوم بالعربية حقا على وجود المصطلح ؟ أليس من الممكن أن يقوم هـذا التدريس باللسان العربي مع غياب المصطلح غياباً موقتا أو مع تأخره ؟ .

هذا هو السؤال الجديد الذي أتمنى أن نتحول اليه . لقد توقفنا عشرات من السنين عند فقدان المصطلح لنبتعد باللغة العربية عن لغـة التدريس العالي ، لنحاربها من حيث نشعر أولا نشعر .. أفليس من الممكن أن نجمع ، في مرحلة موقتة – هي الفترة التي نحتاج فيها الى تأصيل الحضارة – بين التدريس بالعربية وبين استكمال المصطلـح الاجنبي ؟ .

الا نستطيع ، عن هذا الطريق ، أن نكسر هذه الحلقـة التي جمدنا عليهـا .

– ٥ –

لقد قلت إن ايجاد المصطلح لا بد له من جو حضاري ، وأحب أن أضيف إنه لا بد له كذلك من أن يتنفس العاملون في سبيل هذا المصطلح في جو لغوي عربي يخلق هو هذا المصطلح أو يساعد علي خلقه .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والا فكيف ننتظر أن يوجد هذا المصطلح إذا كان أصحابه القادرون عليه من نحو فكري ، والمدعوّون إلى استنباطه من نحو لغوي ، لا يألفون العربية ولا يعيشونها في حياتهم الفكرية : لا يألفون العربية في مطالعاتهم لأن مراجعهم في مطالعاتهم — ولهم العذر — باللغات الاجنبية ، ولا يحاولون التآلف معها ولا يدعونها إلى شيء من مؤالفتهم في تدريسهم ومحاضراتهم ؟ كيف ينبت المصطلح إذا نحن خنقنا كل بذرة يمكن أن تتشقق عنه ، وإذا أحكمنا رتاج كل نافذة ضوء إليه ، أو نسمة هواء أو نسغ حياة يصل نحوه ؟ .

إننا ، في الواقع ، لا نعطي الفرصة في الكثرة الكاثرة من جامعاتنا لخلق هذا المصطلح ، بل إننا نخنق كل فرصة إليه ، عند الطلبة وعند الأساتذة على السواء ، ونسممها على نحو غير مباشر حين نجعل التدريس نفسه باللغة الاجنبية بحجة فقدان المصطلح .. أفيكون عجيبا أن تتأخر حركة المصطلح العلمي — أخشى أن أقول تتقهقر بالقياس إلى اتساع المعرفة العلمية — في الحدود التي أضحت حدوداً دنيا للعلم ، كل هذه العقود من السنين .

اني لا آخذ اليوم بالسؤال : لماذا تأخرت حركة المصطلح العلمي ؟ فالسؤال يوشك أن يكون ، بل لعله يجب أن يكون : كيف استطاع المصطلح العلمي أن يوجد وأن يبقى في بعض البيئات الجامعية رغم كل هذه المثبطات والعوائق ؟

لقد آن لنا أن نفصل بين طرفي الحلقة اللذين يلتقيان على تسميم الحلقة كلها ، أن نفصل بين وجود المصطلح وبين التدريس بالعربية . يجب أن نطلق التدريس باللغة القومية أولا ، ولا علينا أن يتأخر المصطلح أقل ما يمكن أن يكون التأخر .. بل إن ذلك هو الذي يعجل بهذا المصطلح أن يوجد .. ذلك لأن التدريس باللغة الأجنبية يقتل التطلع اللغوي ويخنقه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن عند كل إنسان، عالم أو متعلم، طاقة لغوية؛ والتدريس باللغة الأجنبية يبدد هذه الطاقة . إننا نجد هذه الطاقة عند العامة من الناس ، عند الصناع والحرفيين الذين يمسكون بالآلة ويديرونها بين أيديهم .. مئات من المصطلحات وضعها هؤلاء الذين يعانون التعبير وتشتد حاجتهم اليه فتنطلق به ألسنتهم ، إنه ينبثق عندهم انبثاقا .. إنهم يضعون ، ويعربون، ويغمسون اللفظ الاجنبي في حوض عربي ، ويمنحونه أحيانا القالب أو الصبغ العربي .. إنهم يقدمون المادة الأولى للعلماء والمجامع . فلماذا لا نطلق هذه القدرة على لسان أساتذة الجامعة ومدرسيها ومحاضريها ؟ لماذا نعقل اللسان العربي ونكبله ونضرب حوله الاسداد ، حتى لا يتحرك إلاّ في هذا المدار اللغوي الاجنبي ؟ لماذا لا يكون تدريس المادة العلمية باللغة العربية بمثابة المحرض الذي يعمل على توليد هذه المصطلحات ؟ ولماذا نعطل هذه الطاقة ، وهذه القدرة على الوضع – وهي قدرة طبيعية كامنة – عند المثقفين ، بينما تعطي ثمارها – أيا كان الوصف : ناضجة أو فجة – عند الصناع والحرفيين ؟

– ٦ –

من هنا أحب أن أخلص إلى أن توضع قضية المصطلح العربي وضعاً آخر ، أن نتيح لهذا المصطلح كل فرص الظهور وإنها لفرص كثيرة قد نتحدث عنها في مقال خاص ، ولكني أريد من هذا المقال اليوم أن نعاود طرح هذه القضية هذا الطرح الجديد ، وأن نفيد من القوانين الطبيعية ، وأن ندرك الظروف الحضارية التي تصاحبنا ، وأن نضع المشكلة في إطارها النفسي والاجتماعي والطبيعي .. وذلك كله يحتم علينا أن نعترف بأن الطريق كانت حتى اليوم خاطئة ، أو لنقل باعتدال إنها لم تكن مثمرة ، وإن الانتظار سيطول إذا ظللنا ننتظر هبوط المصطلح من المكان الأرفع ، في تدلل وتمنع ..

ان شروط المصطلح الحضارية قاسية وهي شروط قد لا نملكها تماما ولكن شروطه النفسية في أيدينا نحن الذين نملك هذه القوة النفسية،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتحيا فينـا غريزة النطق والتسمية ، ويختلج في أعماقنا إيمان ، وفيما وراء وعينا حضارة ترتفع بنا عن الشعوب النامية التي لا جذور لها ، وفي نفوسنا تطلع .. وذلك كلـه هو ينابيع التوسع اللغوي .. إنهـا ينابيع صغيرة ، ولكنها تؤلف في مجموعها مجرى دافقا . غير أننا نهيل عليها التراب والرمال حين نظل ندور في هذه الحلقة المفرغة ، وحين نظل ندير ألسنتنا بغير لغتنا .

إن الفصل بين المصطلح ولغة الدراسة ، هذا الفصل الموقت ، يضعنا امـام معيار جديد نزن بـه حبنا للعربية ، ورغبتنا الصحيحة في مواكبة الحضارة مواكبة مشاركة لا متابعة .

شكري فيصل

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net